

مصادر المعرفة



◀ دأب دارسو نظرية المعرفة – فلسفياً أو علمياً – على حصر مصادرها في مصدرين، هما :

– الحس.

– والعقل.

كما دأبوا على استعراض المصراع الفكري والجدلي بينهم في أنَّ المصدر هو الحس فقط أو هو العقل فقط أو هما معاً . وكان هذا لأنَّهم استبعدوا الفكر الديني أو المعرفة الدينية من مجال دراساتهم . ولأنَّا نؤمن بالدِّين الإلهي تربع المصادر لدينا وبالتالي:

1_ الوحي.

2_ الإلهام.

3_ العقل.

4_ الحس.

قال ابن فارس: "الواو والباء والحرف المعتل: أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء إلى غيرك". وفي (معجم لاروس): "الوحى: كل ما ألقته إلى غيرك ليعلمه، ثم غُلِّبَ في ما يلقىء الله إلى أنبيائه".

وقال الشيخ المفید: "وأصل الوحى هو الكلام الخفى، ثم قد يطلق على كل شيء قصد به إفهام المخاطب على السر" له عن غيره، والتخصيص به دون مَنْ سواه، وإذا أضيف إلى الله تعالى كان فيما يخص به الرَّسُول - صلى الله عليهم - خاصّة دون من سواهم على عرف الإسلام وشريعة النبي" (ص). وذلك أَمْرٌ بُحْسَبِما دل عليه قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهُ إِلَّا وَجِئَ أَوْ مَنْ وَرَاءَ حِجَابِ أَوْ يُرْسَلَ رَسُولاً فَيُبَوِّهَ بِإِيمَانِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ) (الشورى/ 51).

ذكرت الآية الكريمة ثلاثة طرق لتكليم الله تعالى البشر، هي:

1- الإلهام، الذي عبدَ عنه بالوحى، وهي لغة القرآن في هذا؛ لأنَّ كلمة الوحى تشمله من حيث اللغة لأنَّه إلقاء علم إلى الغير في السرّ والإخفاء، ومنه قوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ مُوسَى أَنْ أَرْضَعْنِيهِ) (القصص/ 7)، وقوله تعالى: (وَأَوْحَيَ رَبُّكَ إِلَيَّ الذَّجْل) (النحل/ 68).

2- من وراء حجاب، كما في حديث موسى، قال تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى زَارًا فَقَالَ لَاهْلَهُ امْكُثُوا إِنِّي آذَسْتُ زَارًا لَعَلَّهُ آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَيَّ النَّارَ هُدَى * فَلَمَّا أَتَاهَا زُودِيَ يَهُ مُوسَى * إِنِّي أَزَّ رَبِّكَ فَأَخْلَعْتُكَ إِنِّي أَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوَّى * وَأَزَّ أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمْعْ لِمَا يُوحَى * إِنِّي أَرَى اللَّهُ لَا أَرَى إِلَهَ إِلا أَرَى فَأَعْبُدُ نَحْيَ وَأَقْرَمَ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) (طه/ 9-14).

3- إرسال الملك المكلف بوظيفة التبليغ للأنبياء، وهو جبرائيل، وهو أقرب ملائكة الله المقربين لديه، ويعرف به (روح القدس) لطهارته، و(الروح الأمين) لإتمانه على التبليغ إلى الرَّسُول والأنبياء. وإليه يشير أيضاً قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ) (الأنبياء/ 25). وعرّفه علمياً (المعجم الفلسفى - مجمع) بما نصه:

"1- فكرة دينية وفلسفية، معناها: كشف الحقيقة كشفاً مباشراً مجاوزاً للحس ومقصورةً على مَنْ اختارته العناية الإلهية.

ويتخذ هذا الكشف صوراً شتّى نظّمها المتكلّمون في مراتب مختلفة كالرؤيا الصادقة، والاتصال بجبريل في صورة رجل عادي.

2- يذهب فلاسفة الإسلام إلى أنَّ الوحى اتصال النفس الإنسانية بالنفوس الفلكية اتصالاً روحياً فترتسم فيها صور الحوادث وتطلع على عالم الغيب.

وللأنبياء استعداد خاص لهذا الاتصال. وقد يدركه الولي والعارف في درجات أدنى، وهذا ما يسمى بالإلهام.

3- فسّر محمد عبد الوحي تفسيراً قريباً من هذا، وقرر أنَّه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنَّه من عند الله بواسطة أو بغير واسطة". وأخيراً استقرت كلمة (الوحى) مصطلحاً علمياً شرعاً يراد به:

أ - جبرائيل وسيطاً في نقل ما يُؤمر بنقله من الله تعالى إلى الأنبياء.

ب - ما يتلقاه الأنبياء من عالم الغيب، ويتمثل في شريعتنا في القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة.

فالوحي - على هذا - مصدر المعرفة، وبخاصّة فيما يتعلّق بالغيبيات وعالم الغيب.

الإلهام (Inspiration)

قال الراغب الأصفهاني: "الإلهام: إلقاء الشيء في الروع. وبختنصر ذلك بما كان من جهة الله تعالى وجهة الملاّ الأعلى، قال تعالى: (فَأَلْهَمَهُمْهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس/ 8) ...".

والروح - لغةً -: القلب والذهن والعقل.

وفي (المعجم الوسيط): "الإلهام: إيقاع شيء في القلب يطمئن له المصدر، يختصر الله به بعض أصفيائه. والإلهام: ما يلقى في القلب من معانٍ وأفكار".

وعرّفه (صلبيا) في (المعجم الفلسفى) بقوله: "الإلهام: مصدر ألم، وهو أن يلقي الله في نفس الإنسان أمراً يبعثه على فعل الشيء أو تركه، وذلك بلا اكتساب أو فكر، ولا استفاضة، وهو وارد غيبي". وعدّه بعضهم - كما رأينا فيما سبقه - من أنواع الوحي. وعدّه في رأي آخرين رافداً معرفياً مستقلاً.

العقل (Reason)

قال الخليل: "العقل: نقيس الجهل، يقال: عَقَلَ يعقل عقلاً، إذا عَرَفَ ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله، وجمعه عقول. ورجل عاقل، وقوم عقلاً وعاقلون، ورجل عَقُولٌ إذا كان حسن الفهم وافر العقل، وما له معقول أي عقل".

وقال الدكتور صلبيا: "العقل - في اللغة - هو الحجّر والنهي، وقد سمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة، لأنّه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل، كما يمنع العقال الناقة من الشرود". هذا من حيث اللغة. وعلميًا للعقل أكثر من معنى نستطيع أن نوجزها مدرجة تحت العناوين التالية:

1- العقل الشرعي:

وهو ما يميز به بين الحق والباطل، والمواب من الخطأ، والنافع من الضار. وسمّي شرعاً لأنّه هو الذي يعتبر شرطاً في التكليف والخطابات الشرعية، وترتبط الأحكام القانونية عليه في التشريعات الوضعية.

وهو الذي ورد ذكره في الحديث، ففي الصحيح عن أبي جعفر الباقر (ع): "لِمَا خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدرك، فأدرك، ثم قال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا أكملتك إلا لفيمن أحب، أما إنّي إليّك أمر، وإليّك أنهى، وإليّك أُعقّب، وإليّك أُثيب".

2- العقل الفلسفى:

وأعني به المبادئ العقلية (الفلسفية) التي يلتقي عندها العقلاة جمِيعاً، وهي: مبدأ العليّة، ومبدأ استحالة التناقض، واستحالة الدور، واستحالة التسلسل. وسميتها فلسفياً لأنّه هو الذي يقول ببداهة وضرورة هذه المبادئ، وهي مما يدرس ويؤكّد عليه في الفلسفة، وعلىه يقوم المنهج العقلي الذي يتخذ من الدرس الفلسفي مجالاً له.

3_ العقل الاجتماعي:

وأريد منه المبادئ العقلية التي تطابقت واتفقت عليها آراء الناس العقلاة جمِيعاً في مختلف مجتمعاتهم وشَتَّى أزمانهم وأماكنهم، كقبح الظلم، وحسن العدل، ووجوب ما لا يتم الواجب إلّا به، واقتضاء الأمر بالشيء النهي عن ضده، وهو ما يعرف في لغة أصول الفقه بسيرة العقلاة.

4_ العقل الخلقي:

نسبة إلى الأخلاق، حيث تقسمه الفلسفة الأخلاقية إلى قسمين: نظري وعملي.

أ_ العقل النظري:

وهو الذي يتجه إلى ما ينبغي أن يعلم، فينصب على الإدراك والمعرفة.

ب_ - العقل العملي:

وهو الذي يتجه إلى ما ينبغي أن يعمل، فينصب على الأخلاق والسلوك.

ويذهب (كانت Kant) في كتابه (نقد العقل المحمص، ط1، ص298، ط2، ص355) إلى أن "كل" معرفتنا تبدأ من الحواس، ومن ثم تنتقل إلى الذهن، وتنتهي في العقل. وليس فيما ما هو أسمى من العقل لمعالجة مادّة العيان وردها إلى الوحدة العليا للفكر".

وهي نظرية الفلاسفة الإسلاميين بصورة عامّة، والتي أطلق عليها السيد المصدر عنوان (نظرية الانتزاع) في كتابه (فلسفتنا) وأعطى عنها بقوله: "وتتلخص هذه النظرية في تقسيم التصورات الذهنية إلى قسمين:

أ_ - تصوّرات أولية.

ب_ - وتصوّرات ثانوية.

فالتصوّرات الأولية هي الأساس التصوّري للذهن البشري، وتتولّد هذه التصوّرات من الإحساس بمحتواها بصورة مباشرة، فنحن نتصوّر الحرارة لأنّنا أدركناها باللمس، ونتصوّر اللون لأنّنا أدركناه بالبصر، ونتصوّر الحلاوة لأنّنا أدركناها بالذوق، ونتصوّر الرائحة لأنّنا أدركناها بالشم. وهذا جميع المعاني التي ندركها بحواسنا، فإنّ الإحساس بكلّ واحد منها هو السبب في تصوّره وجود فكرة عنه في الذهن البشري.

وتشكّل من هذه المعاني القاعدة الأولى للتصوّر وينشئ الذهن بناء على هذه القاعدة التصوّرات الثانوية، فيبدأ بذلك دور الابتكار والإنشاء، وهو الذي تصطلح عليه هذه النظرية بلفظ (الانتزاع) فيولد الذهن مفاهيم جديدة من تلك المعاني الأولية.

وهذه المعاني الجديدة خارجة عن طاقة الحس، وإن^٥ كانت مستنبطة ومستخرجة من المعاني التي يقدمها الحس إلى الذهن والتفكير. وهذه النظرية تنسق مع البرهان والتجربة، ويمكنها أن تفسّر جميع المفردات التصوّرية تفسيراً متماسكاً.

فعلى ضوء هذه النظرية نستطيع أن نفهم كيف انبثقت مفاهيم العلة والمعلول، والجوهر والعرض، والوجود، والوحدة، في الذهن البشري. إن^٦ كلّها مفاهيم انتزاعية يبتكرها الذهن على ضوء المعاني المحسوسة.

فنحن نحس - مثلاً - بغليان الماء حين تبلغ درجة حرارته مائة، وقد يتكرر إحساسنا بها تين الطاھرتين - ظاھرتى الغليان والحرارة - آلاف المرات ولا نحس بعلية الحرارة لغليان مطلقاً، وإنما الذهن هو الذي ينتزع مفهوم العلية من الطاھرتين اللتين يقدمهما الحس إلى مجال التصور.

هذه النظرية - في واقعها - جاءت لتبين مدى علاقة العقل بالحس، وأن^٧ الأمر ليس كما يذهب إليه الحسبيون من الفلسفه القدامي والتجريبيون من الفلسفه المحدثين من أن^٨ الحس هو المصدر الوحيد للمعرفة البشرية، وإنما هناك الأفكار الفطرية والبساطة التي يولّد العقل مزوداً بها، وهناك الأفكار الغيبية التي تأتي عن طريق الوحي أو الإلهام.

الحس (Sense)

لم يك الإدراك بإحدى الحواس من المعاني التي أدرجها المعجم العربي القديم في قائمة الحس. ففي (لسان العرب): "حس الشيء يحس حـساً وحـساً وحسـساً، وأحس به وأحسه: شعر به. ولعلـ أوـل ما أشير إليه عربـياً هو فيما جاء في مثل الحديث الذي ذكره ابن الأثير في (النهاية)، وما قام به من تعريف للإحساس، قال: "إـنـه قال لـرـجـلـ: متـى أحـسـستـ أـمـ مـلـدـمـ" أي متى وجدت مـسـ الحـمـيـ".

والإحساس: "العلم بالحواس. وهي (يعني الحواس): مشاعر الإنسان كالعين والأذن والأنف واللسان واليد". وقد رکز الفلسفه على الحواس الخمس كمصدر للمعرفة، وتوسّع علماء وظائف الأعضاء (الفسيولوجيون) باستقصاء جميع أعضاء الحس وبيان دورها في تحصيل المعرفة، فقسّموا "الحواس الخمس إلى مجموعتين:

أ - المجموعة الأولى: وتتألف من حاستي اللمس والذوق، وتقوم بدور نقل الانطباعات البيئية أو الإحساسات المختلفة عن طريق الاحتكاك المباشر بالأشياء المادـية والمحيطة بالإنسان.

ب - المجموعة الثانية: وتتألف من حاسة البصر وحاسة السمع وحاسة الشم، وتقوم بدور نقل انطباعات الأشياء المادـية دون أن تتحـكـ اـحتـكـاـكاـ مـباـشـراـ بتـلكـ الأـشـيـاءـ المـادـيـةـ، بل عن طريق الأـشـعـةـ الضـوـئـيـةـ الصـادـرـةـ عنـ الأـشـيـاءـ المـرـئـيـةـ بـالـنـسـبـةـ لـحـاسـةـ الـبـصـرـ، وـعـنـ طـرـيقـ الـأـمـوـاجـ الـصـوتـيـةـ الـمـنـبـعـتـةـ مـنـ الـأـشـيـاءـ الـمـسـوـعـةـ الصـوـتـ الـصـوـتـ الـمـنـبـعـتـةـ مـنـ الـأـشـيـاءـ ذـاتـ الرـائـحةـ بـالـنـسـبـةـ لـحـاسـةـ الشـمـ".

وقالوا: "بالإضافة إلى أعضاء الحس الخمسة التي تعرف بالحواس الظاهرة (هـنـاكـ) حـواسـ أـخـرىـ كـثـيرـةـ (تـشارـكـهاـ فـيـ تحـصـيلـ المـعـرـفـةـ) وـتـعـرـفـ بـالـحـواسـ الـبـاطـنـةـ، وـمـنـهـاـ:

- عضو الإحساس بالاتزان الموجود في الأذن الداخلية الذي عن طريقه يشعر الشخص بتوزن جسمه أو انحرافه أثناء الوقوف أو الحركة أو ركوب الدراجة، ويشعر أيضاً بتوزن رأسه مع أعضاء جسمه الأخرى، وكذلك من ناحية موقع أعضاء جسمه بالنسبة لبعضها.

- أعضاء الحس الداخلية كالقلب والمعدة والرئتين التي تجعل من الإنسان يشعر بالجوع والعطش وألم

المعدة مثلاً وما يجري مجريها .

- وقد ثبت - أيضاً - في الوقت الحاضر أنّ " في سطح الجلد خلايا عصبية حسية أخرى بالإضافة إلى الخلايا الحسية الجلدية المختصة بالإحساس باللمس: فهناك الخلايا الحسية الجلدية المختخصة بالإحساس بالحرارة، وهي منتشرة في جميع أرجاء الجسم على هيئة بقع لا ترى بالعين المجردة يتراوّز مجموعها (30,000) بقعة .

وتوجد على سطح الجلد كذلك خلايا حسية مختخصة بالشعور بالألم، وأخرى بالشعور بالضغط، وجميعها تنتشر في مختلف مناطق الجسم على هيئة مجاميع تختلف كثافتها باختلاف تلك المناطق.

كما ثبت أيضاً أنّ " حاسة الذوق مؤلفة بدورها من أربع مجموعات من الخلايا الحسية الذوقية المنتشرة على سطح اللسان يختص بعضها بالإحساس بالحلوة، وبعض آخر بالمرارة، وثالث بالحموضة، ورابع بالملوحة، فطرف اللسان مثلاً أكثر تخصصاً بالإحساس بالحلوة، وحافته بالحموضة، وقاعدته بالمرارة". والحس - كما رأينا ذو دور مهم في تحصيل المعرفة .►

المصدر: كتاب أصول البحث